المؤرخون والكتابة التاريخية في منطقة توات ما بين القرنين 12و14هـ (18-20م).

أ.مبارك جعفري*

تعد منطقة توات في الجنوب الغربي للجزائر من بين أهم الحواضر الصحراوية، بسبب موقعها الذي يتوسط الصحراء، وكونها محطة رئيسية على طريق القوافل التجارية، تعود عمارتها إلى عصور ما قبل التاريخ حسب الشواهد الأثرية، وبعد دخول الإسلام إلى شمال أفريقيا لعبت دورا أساسيا في انتشار الإسلام جنوب الصحراء، وفي العلاقة بين دول ومماليك المغرب الإسلامي والسودان الغربي، وقد زادت أهميتها التجارية بعد تراجع الطريق الصحراوي الغربي الربط بين مراكش وغانا نتيجة لسقوط مملكة غانا وقيام مملكة مالي، وهو ما ساهم في تطورها وعمارتها وأهلها لتصبح إحدى أهم المحطات التجارية[1].

ونظرا لتلك المكانة توافد عليها كثير من علماء المغرب الإسلامي نذكر منهم: الشيخ مولاي سليمان بن علي الذي قدم من فاس سنة 580هـ/1184م[2]، الشيخ عيسى بن محمد البطوي قدم سنة 714هـ/1314م[3]، الشيخ أبو يحيى محمد المنياري جاء لتوات عام 815هـ /1412م[4]، الشيخ يحي بن يدر بن عتيق التدلسي حل بتمنطيط سنة 845هـ/1441م[5]، الشيخ عبد الله بن أبي بكر العصنوني التلمساني وأبن أخيه الشيخ سالم بن محمد بن أبي بكر العصنوني جاء سنة 862هـ/1458م[6]، الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي حل بتوات سنة 882هـ/1478م، الشيخ العبدلاوي بن الطيب الفزاني الليبي الذي قدم سنة 992هـ/ 1584م[7]، الشيخ أحمد بن محمد الرقاد الكنتي حل سنة 999هـ/1590م[8]، الشيخ أحمد ألتيجاني مؤسس الطريقة التجانية قدم سنة 1196هـ/1782م[9]، كما زار المنطقة الكثير من الرحالة والمؤرخين مثل الرحالة المغربي الشهير ابن بطوطة سنة754هـ/1353م[10]، التاجر الجنوي أنطونيو مالفانتي (Malfan Antonio) سنة 850هـ/1447م[11]، المؤرخ الرحالة حسن (ليون الإفريقي) سنة917هـ/1511م[12]، أبو سالم العياشي

* أستاذ مساعد أ في التاريخ الحديث والمعاصر- قسم العلوم الإنسانية- جامعة الوادي.

سنة1072هـ/1661م[13]، الحاج ابن الدين الأغواطي سنة 1244هـ/1828م[14] الرحالة الألماني جير هارد رولف سنة 1864م[15]...وغيرهم.

ومن دون شك ساهم تحسن الأوضاع الاقتصادية والبعد عن الصراعات في الشمال وقدوم هؤلاء العلماء في تطور المنطقة وازدهارها الفكري بداية من القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي واستمر إلى غاية نهاية القرن الثالث عشر، برز خلالها مجموعة من العلماء في مختلف الفنون وتعدى صيتهم ربوعها إلى مختلف حواضر المغرب الإسلامي، ومن العلوم التي أهتم بها التواتيون علم التاريخ وما يتصل به من تراجم وسير ورحلات دراسة وتأليفا، حيث تضم خزائن المنطقة اليوم العديد من المخطوطات في هذا المجال، كما كان التاريخ في توات يدرس في المدارس والزوايا، خاصة ما ارتبط منه بالدين مثل: السيرة النبوية الشريفة، وسير الصحابة والصالحين، وتراجم العلماء والمشايخ، أو كدروس تلقى على العامة خلال مناسبات معلومة: كشهر رمضان والمولد النبوي الشريف، دون أن ننسى الروايات الشفهية أو حكايات القصاصين التي امتزجت بالأسطورة وكان يرددها الناس في مجالس السمر وعند الأعمال الجماعية (التويزة)، كحفر الفقاقير، وتتضمن أحداث وقعت أو لم تقع، وكرامات الأولياء والصالحين، أو تاريخ بناء هذا القصر أو ذاك، أو قدوم هاته القبيلة أو تلك. كما حاول بعض العلماء داخل الإقليم القيام بكتابات تاريخية جادة تؤرخ له ولا زال البعض منها موجود في خزائن المنطقة، وضاع البعض الآخر مثل ما ضاعت الكثير من المخطوطات وكانت دوافع الكتابة التاريخية في توات متعددة منها:

– قدوم العلماء والرحالة والمؤرخون إلى توات حسب ما تمت الإشارة إليه في المقدمة مثل ابن بطوطة، والمغيلي، والعياشي، ...وغيرهم، كان لهم دور بارز في دفع حركة التأليف وجعل التواتين يحذون حذوهم.

– إزهار تجارة الكتب والمخطوطات التي أصبحت سلعة رائجة لها تجارها وأسواقها تدر أرباح كثيرة بأضعاف ما تجنيه السلع الأخرى وهو ما أشار إليه حسن الوزان[16]، ويمكن القول أنه أحيانا كانت ثالث سلعة من حيث الرواج بعد الذهب والعبيد، ولكون توات ممر رئيسي للقوافل التجارية، ومن تم شجعت المؤلفين على التأليف في شتى الفنون ومنها التاريخ.

– تنقل علماء توات لكبرى الحواضر وتأثرهم بكبار العلماء، وبالتالي كانوا يكتبون أسانيدهم ويترجمون لمشايخهم ويدونون رحلاتهم في طلب العلم، ومنهم الشيخ عمر بن عبد

القادر التنلاني الذي درس في فاس، وعبد الرحمان بن عمر التنيلاني الذي زار المغرب وبلاد السودان[17] .

– رحلات الحجيج وكانت فرصة سنوية للإطلاع على أحوال العالم الإسلامي، وشجعت التواتين على كتابة تلك الرحلات وتأريخها كما كانت توات طريقا رئيسا لحجيج السودان الغربي وجنوب المغرب والصحراء، مما جعلها فرصة يتحينها الطلبة والعلماء للالتقاء بالمشايخ وأهل الفضل لمجالستهم وحضور دروسهم والاستفادة منهم. وكتابة أسانيدهم، وفي هذا السياق يذكر الشيخ عبد الرحمان بن عمر التنيلاني في فهرسته؛ أنه التقى بالشيخ أبو عبد الله محمد بن على الدرعي الذي التقى به في قصر زاجلو بعدما كان في ركب الحجيج لسنة 1147هـ /1734م وأخذ عنه أسانيده التي ذكرها في ترجمته[18].

– الكتابة بناء على أوامر عليا أو لدافع مادي وظهرت بعد دخول الاستعمار الفرنسي حيث أجبر الاستعمار بعض الأعيان والمثقفين على كتابة تقارير أو القيام برحلات بغيت الاستفادة منها في أغراضه التوسعية مثل: المؤرخ سلكة عبد الرحمان الذي كان عاملا في الإدارة الفرنسية، وعبد القادر بن أبي بكر التواتي الذي قام برحلة بناء على طلب ضابط المكتب العربي بقسنطينة بواسوني (Boissonet) مقابل 500 فرنك فرنسي[19].

– انتشار المكتبات داخل الزوايا وعند الأعيان ووجود عدد كبير من أمهات الكتب التاريخية القادمة إلى الإقليم وهو ما جعل الطلبة يقدمون على قراءة التاريخ ومعرفة أهميته ومن ثم كتابته.

أما بخصوص الكتابات التاريخية للتواتين فهي كثيرة ومتعددة الأشكال يصعب حصرها وسنحاول التعريف بأهمها.

أهم المؤلفين وكتاباتهم التاريخية:

– الشيخ عمر بن عبد القادر التنلاني(ت1152هـ/1739م)[20]: ولد سنة 1098هـ/1687م دَرَسَ في جامع القرويين بفاس ودَرَّسَ بها، بعد عودته سنة 1129هـ/1717م استقر بزاوية تنيلان أين بدأ يزاول نشاطه التعليمي كما تولى القضاء، من مؤلفاته "رحلته في طلب العلم لسجلماسة وفاس"[21] وهي من الحجم الصغير ثلاثون صفحة (نسخة بعبد الله) ويذكر فيها أشياخه، وتصدره للتدريس، بالمدرسة المصباحية وجامع القرويين، وهي تعطينا فكرة واضحة عن

التدريس في جامع القرويين وأهم العلماء هناك خلال القرن 12هـ، والرحلة لم تحقق بعد حسب علمي.

– الشيخ عبد الرّحمن بن عمر التنيلاني(1189هـ/1775م)[22]: من أشهر علماء القرن الثاني عشر، درس في توات وسجلماسة وأروان على يد شيوخ كبار منهم: الشيخ عمر بن عبد القادر التنيلاني، الشيخ محمد بن اب المزمري، الشيخ صالح بن محمد السجلماسي اللمطي، أبو عبد الله محمد بن علي الدرعي، أبو العباس احمد بن صالح التكروري، تضلع في مختلف العلوم وأصبح مرجعا في الفتوى لكثير من العلماء والقضاة، له عديد المؤلفات في مختلف الفنون منها كتابه "فهرست التنيلاني"[23] وهو مؤلف من الحجم المتوسط حوالي مئة صفحة (نسخة تنيلان) تضمن التعريف بشيوخه حيث ترجم المؤلف لاثني عشر شيخا من شيوخه في توات والمغرب الأقصى وبلاد السودان، وذكر تأليفهم وإجازتهم التي أجازوه بها ومرويا تهم والعلوم التي أخذها عنهم، والكتاب يعطينا صورة واضحة عن الحركة التعليمية بصفة عامة في توات والمناطق التي زارها المؤلف في السودان الغربي والمغرب الأقصى وهو دقيق في وصفه وفي حله وتر حاله، كما له مؤلف "رحلة إلى الحج"[24] وهي رحلة صغيرة من عشرون صفحة من الحجم الصغير (نسخة باعبد الله) يذكر فيه مراحل الطريق مرحلة مرحلة، وفي طريق العودة باغتته المنية في مصر قبل إتمامه عام 1189هـ/1775م، ودفن في مصر بمقبرة سيدي عبد الله المنوفي.

– الشيخ محمد بن عمر بن أحمد الحبيب بن محمد بن المبروك البداوي[25]: درس على يد والده الشيخ عمر بمسقط رأسه بودة[26]، تضلع في مختلف العلوم ومارس الإفتاء ببلدته، كما كان خطاطاً يشرف على كتابة وثائق المعاملات، وتذكر المراجع التي ترجمت له أنه توفي سنة 1212هـ/1798م غير أنه وبعد إطلاعنا على المخطوط وجدنا فيه ذكر لكتاب "الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى"[27] للمؤرخ الناصري السلاوي (ت1250-1315هـ/1834-1897م)، وهو ما لا يمكن تطابقه مع تاريخ وفاته والراجح أنه عاش في نهاية القرن 13 وبداية القرن 14هـ، كان له اهتمام واضح بالتاريخ، وهو ما جعله يقدم على تأليف كتابه "نقل الرواة عمن أبدع قصور توات"[28] الذي للأسف لم يبقى منه إلا إحدى عشر ورقة وهي بخط المؤلف[29] وقد ذكر في مقدمته أنه يتضمن مقدمة وثلاث أبواب وهي كالآتي: مقدمة في أصل كلمة توات وقصورها وفقاقيرها، الباب الأول: في الأحداث الجارية بتوات، من القرن الثامن

حتى القرن الثاني عشر الهجريين، الباب الثاني: في التعريف بمشاهير علماء توات، الباب الثالث: في الأخبار التاريخية لجهة بودة، ولكن لم يصلنا إلا جزء من المقدمة، أما باقي المخطوط حسب ما جاء في مقدمته مفقود حسب أغلب الباحثين[30] أو يكون المؤلف قد توقف عن كتابة لداعٍ ما. وعلى كل حال يمكن القول أن الدارسين للتاريخ في توات قد حرموا من مصدر هام حول تاريخ المنطقة، أما ما تبقى منه رغم أنه لا يمثل إلا جزء من المخطوط غير أنه يكتسي أهمية كبرى ويظهر من خلاله إطلاعه الواسع على كتب التاريخ ويذكرنا بكتاب آخر في التاريخ مفقود وهو كتاب "أصول أهل توات" لسيدي أحمد بن يوسف التنيلاني(ق11هـ/17م)، كما أعطانا تعريف عن أصل التسمية "توات" وأصل الفقاقير، ولو أكمل المؤلف كتابته أو تم العثور على الأجزاء المفقودة منه سيكون لا محالة من أهم مصادر تاريخ توات.

–الشيخ عبد الرحمان بن إدريس بن عمر التنيلاني[31]: ولد عام 1181هـ/1767م، كان عالما ماهرا في الفقه والأدب، سافر لفاس وتتلمذ على يد الشيخ عبد القادر بن شقرون، توفي في شهر جمادي الثانية عام 1233هـ/1818م، له مؤلف مشهور"رحلة إلى مدينة الجزائر"[32] وهي في مخطوط من الحجم الصغير حوالي ثلاثة عشر صفحة (نسخة تنيلان) ولم تحقق إلى اليوم، تضمنت رحلته التي بدأها في 01 شعبان 1231هـ/26 جوان1816م، وتكمن أهميتها أنها تزامنت مع الحملة الإنجليزية الهولندية على مدينة الجزائر شوال 1231هـ/أوت1816م حيث كان موجود في مدينة الجزائر ووصف لنا الهجوم وصفا دقيقا وهو من المصادر العربية القليلة رفقة "مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار"[33] التي تحدثت عن الهجوم، ولم يكتفي صاحب الرحلة بوصف الأحداث بل حاول تعليلها فهو يذكر مثلا أسباب هزيمة الجزائر في هاته الحرب[34] وذكر خسائر الجزائر والنصارى وأوضاع المدينة بعد الحملة وبنود الصلح[35]، كما تميز بالموضوعية حيث يقول: ((يصف هذه الوقيعة بوصفها الحقيقي ولا أدري بما أشبهها))[36] ، كما يكثر من قول : أبلغني تحقيق ذلك، والقاضي المالكي أخبرني[37]، الدقة في تحديد زمن الأحداث حيث يقول: وقعت بعد صلاة الظهر، وقبل العصر، ومرة على ذلك إحدى عشر ساعة غير سدس[38]، والرحلة مصدرا من مصادر تاريخ الجزائر العثمانية بداية القرن 19م.

– محمد الطيب بن عبد الرحيم التمنطيطي[39]: محمد الطيب بن الحاج عبد الرحيم المشهور باسم "ابن بابا حيدة" وهو من فقهاء مدينة تمنطيط ولد سنة 1184هـ/1770م، نبغ في الفقه واهتم بالتاريخ والأنساب، له كتاب مشهور "القول البسيط في أخبار تمنطيط"[40]، وهو كتاب من الحجم الصغير عشرون صفحة تقريبا (نسخة كوسام) ويشمل تاريخ مدينة تمنطيط وعمارتها ومكانتها السياسية والاقتصادية، وأسماء القبائل التي سكنتها حتى عصره، وتاريخ بعض القبائل والعلماء. ونظرا لأهمية هذا المصنف فقد حضي بإعجاب المؤرخين الفرنسيين ومنهم (مارتان) الذي أفرد له ترجمه في كتابه "أربعة قرون من تاريخ المغرب والصحراء"[41]، وقام الباحث فرج محمود فرج بتحقيق هذا المخطوط ونشره، وأشاد الأستاذ المهدي البوعبدلي بأهمية هذا المخطوط وعده من الكتب النادرة حول تاريخ توات وخاصة عاصمتها تمنطيط[42].

– محمد بن عبد القادر بن عمر التنيلاني[43]: من العائلة التنيلانية نزيل مهدية له مؤلف بعنوان "الدرة الفاخرة في ذكر ما بتوات من العلماء والأشراف الادريسيين والعلويين"، وهو مخطوط من الحجم الصغير– خمسة وثلاثون صفحة (نسخة كوسام)– قال مؤلفه: إنه فرغ من كتابته يوم الأحد الثالث عشر صفر عام 1250هـ/1834م، وفيه تراجم لعلماء توات بصفة مقتضبة، وذكر أنه أخذها من تقاييد لوالده، والمخطوط لم يحقق بعد حسب علمي.

– الحاج عبد القادر بن أبي بكر هيبة الله الشريف التواتي: الأرجح حسب رحلته أنه ولد في بداية القرن التاسع عشر في أولف بتديكلت، كان ذا ثقافة واسعة وعلى علم بالصحراء، اتصل ببعض الضباط الفرنسيين في تقرت الذي طلبوا منه معلومات عن الصحراء فقام برحلة سنة 1266هـ/1849م، ودونت بشكل نهائي سنة 1268هـ/1851، والرحلة انطلقت من توات إلى تقرت ومنها إلى قسنطينة ثم بسكرة فتقرت ثانية ثم تماسين ثم ورقلة ثم ميزاب فمتليلي ثم لقليعة ثم تيميمون وصولا إلى أولف التي دون بها رحلته[44]، ونظرا لأهميتها ترجمها القس بارجيس، وجاءت في كتاب "الصحراء والسودان"[45]، وهي من الأهمية بمكان بحيث تعطينا صورة عن الصحراء الجزائرية خاصة الأماكن التي زارها من حيث: السكان والأوضاع السياسية وهجمات القبائل علي القوافل التجارية، كما عرفنا بأماكن الآبار في الصحراء والمسافات بين المناطق، وأسماء النباتات والحيوانات والمعادن، بالإضافة إلى معلومات تاريخية سابقة عند المؤلف وضمنها للرحلة حول التوارق وحولياتهم، ومعلومات عن مدينة تمبكتو ...وغيرها[46]

– محمد بن عبد الكريم بن عبد الحق التمنطيطي[47]: سليل العائلة البكرية العريقة، ولد بتمنطيط سنة 1300هـ/1883م، درس في كوسام على يد الشيخ عبد الله بن أحمد الحبيب وتفقه في الدين، مارس التدريس والقضاء، توفي سنة 1374هـ/1955م، يعد من أشهر المؤرخين في توات، وله كتابين مهمين في تاريخها هما: "درة الأقلام في أخبار المغرب بعد الإسلام"[48]، وهو مخطوط صغير الحجم من سبعين صفحة (نسخة كوسام)– سبعة وثلاثون صفحة (نسخة المطارفة)، أفرده للتعريف بتوات وتاريخ عمارتها وتاريخ قدوم أهم القبائل وأبرز العلماء بشكل مختصر، والمؤلف الثاني هو"جوهرة المعاني فيمن ثبت لدي من علماء الألف الثاني"، وهو كتاب من الحجم الصغير– ستون صفحة (نسخة كوسام)– ترجم فيه لثمانية وخمسين عالما عن علماء توات وبلاد المغرب، وهما كتابان لا غنى عنهما للباحث حول تاريخ المنطقة ويستمدان أهميتهما من كون صاحبهما كان قاضيا وشيخا من شيوخ الزاوية البكرية بتمنطيط ومكتبتها العريقة، كما كان على إطلاع واسع بالتقاييد وشجرات الأنساب، كما يتميز طرحه بالموضوعية والابتعاد عن الروايات الشاذة التي لا يقبلها العقل، وله مؤلف آخر في الأنساب هو "الكواكب البرية في المناقب البكرية"[49]، وفيه ذكر لنسب الشيخ البكري بن عبد الكريم والعائلة البكرية التي حملت اسمه.

– عبد الرحمن سلكة: تعلم الفرنسية مما أهله للعمل في إدارة المكتب العربي بتوات منذ سنة1331هـ/1913م، له مؤلف تاريخي باللغة الفرنسية بعنوان "ملخص بخصوص توات"[50]، جمع فيه معلومات واسعة عن الإقليم أو ربما كان دراسة بناء على طلب أحد الضباط الفرنسيين، ظهرت الدراسة سنة 1340هـ/1922م وهي دراسة مهمة تعرفنا بتاريخ المنطقة وقصورها وعدد سكانها والعادات والتقاليد والطبقات ومختلف الأنشطة الاقتصادية، كما تحدث عن علماء توات وعلاقاتهم مع علماء الجزائر، واعتمد في كتابه على الرواية الشفهية والمخطوطات، وهو كتاب مهم لا غنى عنه للباحث خاصة في بداية القرن العشرين الميلادي.

– الشيخ مولاي احمد الطاهري الإدريسي(ت1399هـ/1979م): من مواليد عام 1325هـ/1907م بالمغرب الأقصى، حفظ القران الكريم، وتبحر في العلوم الشرعية واللغوية، جال في مناطق مختلفة فزار شنقيط والسودان، ومر على توات فطاب له المقام بها، احتضنه أولاد سي حمو بسالي، وأسسوا له مدرسة قرآنية، ذاع صيته في المنطقة، وكان له فضل في تخريج الكثير من الأعلام المعاصرين ومنهم: الشيخ محمد باي بلعالم، والحاج عبد القادر

المغيلي وغيرهم، توفي بالمغرب عام 1399هـ/1979م[51]، أهتم بالتاريخ وله مخطوط "نسيم النفحات في ذكر جوانب من أخبار توات"[52] الذي يعد من بين المخطوطات المهمة التي تؤرخ لتاريخ منطقة توات، وقد ألفه على وجه التقريب في الستينيات من القرن الماضي، والمخطوط غير محقق، وهو من الحجم المتوسط- عدد صفحات المخطوط 183 صفحة (نسخة كوسام)، تضمن عديد المحاور المتداخلة منها سيرة المؤلف وقدومه إلى توات، والتعريف بقصور توات وبعض أخبارها والأنساب، وتضمن المخطوط بعض المعلومات التاريخية المقتضبة حول جبهة التحرير في الجنوب وقضية فصل الصحراء، وتكمن أهميته في كون صاحبه عالم جليل وذو إطلاع واسع على خزائن المنطقة وعالم بأنسابها كما تحرى الدقة في كتابته حسب قوله: "...وقد تحريت في كتابة هاته العجالة الكثير من التحريات فلم أكتب شيء إلا عن الثقات من الرجال الصادقين والعلماء العارفين..."[53]، ولا غنى عنه بالنسبة للمؤرخين لتاريخ المنطقة خاصة خلال القرن الرابع عشر الهجري العشرين ميلادي.

– محمد العالم بكراوي: من العائلة البكرية، سكن المنيعة (ولاية غرداية)، له كتابين مشهورين حول الأنساب وتراجم العلماء، الأول: "ترجمة وجيزة لبعض علماء توات"[54]، وهو مخطوط من الحجم الصغير- أربعة وثمانون صفحة من الحجم الصغير نسخة (تمنطيط)-، وتتضمن ترجمة مختصرة لبعض علماء توات، والمخطوط الثاني: "الدرة البهية في الشجرة البكرية"[55]، وهو مخطوط من الحجم المتوسط- حوالي مائة وثمانون صفحة (نسخة تمنطيط)-، وخصّصه المؤلف لعلماء وتراجم الأسرة البكرية من الشيخ ميمون بن باز القرن العاشر الهجري لغاية القرن الرابع عشر، وتناول في الفصل الثالث[56] بعض أخبار توات، ويبدو أن المؤلف أعتمد بشكل كبير على مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الكريم بن عبد الحق التمنطيطي.

– الشيخ محمد باي بلعالم(ت 1431هـ/2009م): ولد في قرية ساهل باقبلي التابعة لدائرة أولف عام 1349هـ/1930م، يعود نسبه إلى قبيلة فلان المشهورة في غرب ووسط أفريقيا، أخذ العلم عن والده ثم على يد الشيخ مولاي احمد الطاهري الإدريسي، قام بتأسيس مدرسة دينية بأولف، وكان شديد التأثر بالشيخ عبد الحميد ابن باديس وحركته الإصلاحية، له العديد من المؤلفات في أغراض مختلفة منها مؤلفات تاريخية أبرزها كتاب "الرحلة العلية إلى منطقة توات لذكر بعض الأعلام والآثار والمخطوطات والعادات وما يربط توات من الجهات"، ويظهر من

خلال عنوانه أنه كتاب يتضمن الكثير من الأخبار والرحلات، وهو خلاصة تجربة الشيخ التي تزيد عن ستين سنة قضاها في طلب العلم والتدريس والفتوى، والتنقل بين مختلف جهات الوطن وأقطار العالم الإسلامي.

والكتاب يتحدث عن ملاقاته العلماء ومراسلاته ومناقشاته معهم، وهو من الحجم الكبير في جزئيين، وحوالي ألف ومائة صفحة، وتم طبعه سنة 1426هـ/2005م[57]، وهو غني وثري لا غنى للباحث عنه، ويتضمن الكثير من المادة التاريخية الخام التي يصعب الوصول إليها، رغم أنه ابتعد عن المنهج التاريخي في كتابته، وله كتاب "قبيلة فلان في الماضي والحاضر ومالها من العلوم والمعرفة والمآثر"[58]، وهو كتاب من الحجم المتوسط– خمسمائة صفحة– أفرده للتعريف بقبيلته فولان، وهي من أكبر القبائل في أفريقيا، ولها فروع في توات حيث ذكر أصولها وأماكن تواجدها، وترجم لأهم أعلامها في توات وغرب أفريقيا، ودورها في العلم والجهاد، وهو كتاب مهم يلخص تجربة الشيخ في البحث عن أصول قبيلته وعلاقاته مع أفرادها في مختلف الدول، تميز بالموضوعية إلى حد كبير، وعرض فيه المؤلف مختلف وجهات النظر حو لها.

كما له مؤلف تاريخي آخر بعنوان "الغصن الداني في ترجمة وحياة الشيخ عبد الرحمان بن عمر التنيلاني"[59]، وهو كتاب من الحجم الصغير– أربع وتسعون صفحة– أفرده للتعريف بالشيخ عبد الرحمان بن عمر التنيلاني مستفيدا مما في خزانته من مخطوطات ومؤلفات الشيخ عبد الرحمان بن عمر التينيلاني.

– أهم خصائص الكتابة التاريخية في توات: يمكن من خلال الإطلاع على بعض المؤلفات التاريخية في توات، وما يتصل بها من أبحاث ودراسات أن نستنتج مجموعة من المميزات ميزت الكتابة التاريخية والمؤرخين منها:

– المحلية أي أن معظمها كانت حول توات وتاريخها باستثناء بعض الرحلات التي أرخ أصحابها للأماكن التي زاروها، ولكن ظلت مرتبطة بهم مثل: رحلة عبد الرحمان بن عمر إلى الحج، ورحلة عمر بن عبد القادر لسجلماسة وفاس، أو رحلة الشيخ عبد الرحمان بن إدريس لمدينة الجزائر، بل أكثر من ذلك اختص البعض منها في تاريخ قصر "البسيط في أخبار تمنطيط" أو تاريخ عائلة مثل "الكواكب البرية في المناقب البكرية"، حتى أن تداولها وانتشارها

ظل في أغلبه محصورا في توات، باستثناء بعض الكتابات حول الأعيان والشخصيات البارزة مثل المغيلي.

– اقتصرت الكتابة التاريخية على بعض العائلات التي اشتهرت بمكانتها العلمية كالعائلة البكرية في تمنطيط، والتنيلانية في تنيلان، والجعفرية في بودة....الخ

– تأثرها بالجانب الديني بما أن أغلب هؤلاء المؤرخين كانوا فقهاء وقضاة وشيوخ زوايا، وبالتالي حملت طابعا دينا وجاءت فيها الكثير من النوازل والمسائل الفقهية، أو ربما لكون القضاة وشيوخ الزوايا هم الأكثر إطلاعا على أحوال الناس وعلى الوثائق والمعاملات والتقاييد وبالتالي توفرت لهم المادة التاريخية دون غيرهم.

– اهتم معظمها وبشكل أساسي على التأريخ للعلماء والمشايخ، ولم تؤرخ لوجهاء القبائل وأصحاب النفوذ أو لأحداث سياسية.

– غياب التخصص عند المؤلفين فمعظمهم شيوخ زوايا وفقهاء حاولوا المزاوجة بين مهامهم والكتابة التاريخية.

– اعتماد الصنعة والسجع في صياغة العناوين مثل "نسيم النفحات في ذكر جوانب من أخبار توات"، "قطف الزهرات من أخبار علماء توات"، وفي بعض الأحيان يكون ذلك على حساب الموضوع فمثلا مخطوط "درة الأقلام في أخبار المغرب بعد الإسلام"؛ فالزمان (بعد الإسلام) والمكان (المغرب) بعيدان عن موضوع المخطوط حول توات.

– الخروج عن النص فكثيرا ما يخرج المؤلف عن النص إلى مواضيع ليست لها علاقة بالتاريخ، وهذا يتكرر في كثير من المؤلفات مثلا: مخطوط نسيم النفحات نجد أنه من الصفحة 09 إلى 26 حديث عن الأولياء وكراماتهم[60]، وهو ما يتكرر في الصفحة 36 إلى 84[61]، وفيها حديث عن الصحابة والأولياء...وغيرها، كذلك مخطوط جوهرة المعاني تضمن من الصفحة 31 إلى الصفحة 36 قصيدة من خمسين بيتاً خارجة عن النص[62].

– جاءت معظمها في أحجام صغيرة لا تتعدى المائة صفحة، وميلها الشديد للاختصار المخل وعدم التفصيل في أمور كانت بحاجة لذلك فمثلا: رحلة عبد الرحمان بن إدريس للجزائر العاصمة سنة 1231هـ/1816م جاءت في ثلاثة عشر صفحة، وهي قليلة مقارنة بحجم الأحداث التي شاهدها، ولو كان أطال قليلا في الوصف ورتب الأحداث بشكل جيد لكان من أهم المصادر في تاريخ الجزائر العثمانية لقلتها.

– مراعاتها لخصوصية وطابع المنطقة والعرف والعادات والتقاليد، حيث تحاشت في كثير من الأحيان الحديث في بعض المواضيع مثل الصراع بين القبائل والأنساب خوفا من الحساسيات وهو ما افقدها في بعض الأحيان للموضوعية والواقعية.

– مساهمتها في كتابة تاريخ توات والتعريف بها وبعلمائها حيث شجع وجودها بهذا العدد الكثير من الدارسين والباحثين للكتابة حول تاريخ المنطقة، وبفضلها توجد في المكتبات اليوم عشرات الكتب والرسائل الجامعية حول المنطقة بل حتى من خارج الوطن ومنهم الأستاذ فرج محمود فرج.

في الأخير يمكن القول أن ما تمت الإشارة إليه لا يمثل إلا جزء يسيرا من المؤلفات التاريخية التواتية، والتي يبقى الكثير منها حبيساً لأدراج الخزائن والمكتبات ولم يحقق بعد، بل حتى لم يطلع عليه، إلى جانب كتابات أخرى لا تقل في الأهمية التاريخية مثل كتب النوازل واشهرها "نوازل الغنية"[63] و"نوازل الزجلاوي"[64]، وسجلات المحاكم والتقاييد... وغيرها من الوثائق التي تعطينا صورة واضحة عن تاريخ المنطقة ومناطق أخرى من مختلف المجالات، وهي بحاجة للدارسين والباحثين لنفض غبارها والاستفادة منها.

الهوامش:

1–مبارك جعفري: العلاقات الثقافية بين توات والسودان الغربي خلال القرن 12 هـ، دار السبيل للنشر والتوزيع، بن عكنون الجزائر، 2009، ص 75.

2–عبد الحميد بكري: النبذة في تاريخ توات وأعلامها من القرن 9 إلى القرن 14 هـ، دار الهدى، عين مليلة الجزائر، 2005م، ص ص 74، 75.

3–نفسه: ص.62

4–محمد الطيب بن الحاج عبد الرحيم(ابن بابا حيدة): القول البسيط في أخبار تمنطيط، تحقيق فرج محمود فرج، ديوان المطبوعات الجامعية و المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر.بدون تاريخ، ص 27. محمد بن عبد الكريم محمد بن عبد الكريم بن عبد الحق التمنطيطي: جوهرة المعاني في تعريف علماء الألف الثاني، مخطوط، ب ت، خزانة كوسام، ادرار، الجزائر، ص18.

5–محمد بن عبد الكريم بن عبد الحق التمنطيطي: درة الأقلام في أخبار المغرب بعد الإسلام: مخطوط، ب ت، خزانة كوسام، أدرار، الجزائر، ص19. عبد الحميد بكري: المرجع السابق، ص.75

6–ابن بابا حيدة، المصدر السابق، ص 31.

7–نفسه: ص 18.

8–محمد بن سيد المختار الكنتي: الطرائف والتلائد من كرامات الشيخين الوالدة والوالد، مخطوط، ب ت، خزانة الشيخ عبد القادر المغيلي، الحي الغربي، ادرار، الجزائر، ج 1، ص 141، 144.

9–Bernard saffroy: chronique du Touat, centre saharienne, Ghardaïa, Algérie, 1994. P8.

10–ابن بطوطة: تحفة النظار في غريب الأمصار وعجائب الأسفار، دار صادر، بيروت، 2001م، ص ص406، 407.

11–نياني ج .ت وآخرون: تاريخ إفريقيا العام، المجلد الرابع (أفريقيا من ق 12 إلى ق 16) ، اليونسكو، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1988م، ص671.

12–الحسن ابن محمد الوزان (ليون الإفريقي): وصف إفريقيا، ترجمة محمد حاجي، ومحمد الأخضر، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1983م، ج2، ص 133.

13–عبد الله بن محمد العياشي: الرحلة العياشية 1661م . 1663م، تحقيق سعيد الفاضلي و سليمان القرشي، جزآن، ط1، دار السويدي للنشر والتوزيع، الإمارات العربية المتحدة، 2006، ج1، ص 79 وما بعدها.

14–الحاج ابن الدين الأغواطي: رحلة الأغواطي في شمالي افريقية والسودان والدرعية، ترجمها من العربية إلى الانجليزية ويليام ب .هودسون، وترجمها إلى العربية أبو القاسم سعد الله، وأوردها في كتابه أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج2، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان، 1990م، ص ص 257، 258.

15–إسماعيل العربي: الصحراء الكبرى وشواطئها، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985م، ص 25.

16–الحسن الوزان، المصدر السابق، ج2، ص .167

17–مبارك جعفري: المرجع السابق، ص ص 136، 137.

18–عبد الرحمان بن عمر التيلاتي: تراجم بعض علماء ومشايخ الشيخ عبد الرحمان بن عمر التيلاتي(فهرست التيلاتي)، مخطوط، ب ت، خزانة تنلان، ادرار، الجزائر، ص.55

19–فارس كعوان: الاستشراف الفرنسي والتراث التواتي قراءة في رحلة عبد القادر بن أبي بكر التواتي بن هيبة الله، الملتقى الوطني الرابع إسهامات علماء توات في الحركة الفكرية والثقافية إبان العصر الحديث(1500 . 2000م)، جامعة أدرار، 19 . 20 افريل 2010م، ص 131.

20–ينظر ترجمته: عمر بن عبد القادر التيلاتي: الرحلة إلى سجلماسة وفاس، مخطوط، ب ت، خزانة بن الوليد، بعبد الله، ادرار، الجزائر، ص1 وما بعدها. عبد الرحمان بن عمر التيلاتي: المصدر السابق، ص 01 وما بعدها. محمد عبد القادر بن عمر ابن عبد الرحمان التيلاتي: الدرة الفاخرة في ذكر ما بتوات من العلماء والأشراف الإدريسيين والعلويين، مخطوط، دت، خزانة كوسام، ادرار، الجزائر، ص3. تقييد لأهم علماء توات، مخطوط، ب ت، خزانة كوسام، ادرار، الجزائر ص20. محمد بن عبد الكريم: جوهرة المعاني، المخطوط السابق، ص ص13،14. محمد باي بالعالم : الفصن الداني في ترجمة وحياة الشيخ عبد الرحمان بن عمر التيلاتي، ط1، دار هومه، الجزائر 2004، ص 05. محمد عبد العزيز سيدي عمر: قطف الزهرات من أخبار علماء توات، مطبعة دار هومه، ط2، الجزائر، 2002م، ص83 وما بعدها. أحمد جعفري: الحركة الأدبية في منطقة توات خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر الهجريين، رسالة دكتوراه في الأدب، إشراف الدكتور محمد زمري، جامعة تلمسان، 2007/2006م، ص 320. مولاي التهامي غيتاوي: سلسلة النواة في إبراز شخصيات من علماء وصالحي إقليم توات، جزآن، ط1، المطبعة الحديثة للفنون المطبعية، الجزائر، 2001، ج1، ص .102

21–توجد نسخة منها بخزانة باعبد الله، تيمي، ونسخة تحت يدي.

22–ينظر ترجمته:عبد الرحمان بن عمر: المخطوط السابق، ص 01 وما بعدها، نفسه: رحلة إلى أرض الحجاز، مخطوط، د ت، خزانة تنيلان، ادرار، الجزائر، ص1 وما بعدها. تقييد علماء توات، المخطوط السابق، ص10 وما بعدها. محمد عبد القادر بن عمر التيلاتي: المخطوط السابق، ص03 وما بعدها، محمد بن عبد الكريم: جوهرة المعاني، المخطوط السابق، ص13 وما بعدها. محمد العالم بكراوي: ترجمة وجيزة لبعض علماء توات، المخطوط السابق، ص 29 وما بعدها. أحمد جعفري: الحركة الأدبية في إقليم توات، المرجع السابق، ص 313 وما بعدها. عبد العزيز سيدي عمر: المرجع السابق، ص 99 وما بعدها. محمد باي بالعالم: الرحلة العلية إلى منطقة توات لذكر بعض الأعلام والآثار والمخطوطات والعادات وما يربط توات من الجهات، جزآن، دار هومه، الجزائر، 2005م، ج1، ص 220 وما بعدها. وأفرد له هذا الأخير كتابا . ينظر: أحمد باي بالعالم : الفصن الداني في ترجمة وحياة الشيخ عبد الرحمان بن عمر التيلاتي، ط1، دار هومه، الجزائر 2004.

23–قام الأستاذ عبد الرحمان بعثمان بتحقيق المخطوط تحت إشراف الأستاذ بن معمر جامعة بشار 2009.

24–توجد منها نسخة في خزانة الشيخ باي بلعالم، ونسخة في خزانة باعبد الله بتيمي .

25–أحمد بالصافي جعفري: محمد بن ابَ المزمري 1160هـ حياته وآثاره، ط1، دار الكتاب العربي، القبة الجزائر، 2004م، ص39. الصديق حاج أحمد: التاريخ الثقافي لإقليم توات من القرن 11هـ إلى القرن 14هـ، ط1، الجزائر،2003، ص116.

26–تقع غرب مدينة أدرار بحوالي 15 كلم.

27–محمد بن عمر بن محمد الجعفري: نقل الرواة عن من أبدع قصور توات، مخطوط، ب ت، خزانة الحاج محمد بن حسان، تنيلان ادرار الجزائر، ص 7.

28–توجد نسخة أصلية بخط المؤلف في خزانة الحاج محمد بن حسان بتنيلان ادرار الجزائر، وصور عنها في عديد الخزائن منها نسخة مصورة تحت يدي

29–ينظر الملاحق الورقة الأولى من المخطوط.

30–قام مؤخرا الباحث سماعيلي عبد الله بن الطيب بتحقيق المخطوط في مركز البحوث والدراسات العربية بالقاهرة، ونتمنى نشره ليستفيد منه الباحثون.

31–ينظر ترجمته: محمد عبد القادر بن عمر التيلاتي: المخطوط السابق، ص06. محمد باي بالعالم، الرحلة العلية، المرجع السابق، ج1، ص36، أحمد جعفري: الحركة الأدبية، المرجع السابق، ص 313، عبد العزيز سيدي عمر: المرجع السابق، ص 81.

32–توجد منها عديد النسخ منها نسخة تحت يدي.

33–ينظر أحمد الشريف الزهار: مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار نقيب أشراف الجزائر 1168 . 1246هـ/1754 . 1830م، تحقيق أحمد توفيق المدني، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1980.

34–عبد الرحمان بن إدريس التيلاتي: رحلة إلى الجزائر،(1231هـ)، مخطوط، د ت، خزانة تنيلان، ادرار، الجزائر، ص ص 06، 07.

35–نفسه: ص ص 8، 9، 11.

36–نفسه: ص 07.

37–نفسه: ص 08.

38–نفسه: ص 06.

39–ينظر محمد الطيب بن الحاج عبد الرحيم(ابن بابا حيدة): المصدر السابق، ص 06

40–توجد العديد من النسخ منها نسخة في خزانة الشيخ محمد بن الكبير، ونسخة في خزانة تمنطيط، وأخرى في كوسام، وهناك نسخة في المكتبة الفرنسية تحت رقم 6399.

41–Martin A.G.P : quatre siècles d'histoire Marocaine (1504,1904), Paris,1923.

42–ينظر دراسة ،المهدي البوعبدلي: اضواء على تاريخ مدينة تمنطيط ودور المغيلي بها في قضية يهود توات، مجلة الثقافة، تصدرها وزارة الإعلام والثقافة، الجزائر، عدد 94، 1986 ص.ص 83، 88.

43–ينظر ترجمته: محمد عبد القادر بن عمر التنيلاني: المخطوط السابق، ص 1.

44–لم أعثر للأسف على هاته الرحلة، والتي ربما تكون موجودة في إحدى خزائن تدكلت .

45–L'Abbé Barges : Le Sahara et le Soudan, documents historiques et géographiques, Rouvier libraire–éditeur, paris,1853.

46–فارس كعوان: المرجع السابق، ص 130 وما بعدها.

47–ينظر ترجمته: عبد الحميد بكري، المرجع السابق، ص 191 وما بعدها.

48–توجد منه العديد من النسخ في خزانة تمنطيط، وكوسام، وخزانة الشيخ عبد القادر المغيلي، ونسختان تحت يدي.

49–توجد منه نسخة في تمنطيط، ونسخة في خزانة الشيخ سيدي محمد بن الكبير بأدرار.

50–Abderrahmane Selka: Notice Sur le Touat, Bul – SO – G – D' Alger, Alger, 1922.

51–للمزيد حول ترجمته ينظر: مولاي احمد الطاهري الإدريسي: نسيم النفحات في ذكر جوانب من أخبار توات، خزانة كوسام، ادرار، الجزائر، ص 01 وما بعدها. وأيضا محمد باي بالعالم: الرحلة العلية، المرجع السابق، ج 1، ص ص من 354 الى 372. وأيضا: مولاي الحبيب: فتوحات الإله مالك على نظم أسهل المسالك في فقه الإمام مالك، المطبعة العلاوية، مستغانم، الجزائر، ب ت، ج 1، ص ص من 05 إلى 14.

52–توجد منه عديد النسخ منها نسخة في خزانة المطارفة، ونسخة أصلية في خزانة سالي،

53–مولاي أحمد الطاهري: المخطوط السابق، ص 31.

54–توجد نسخة في خزانة تمنطيط

55–توجد نسخة في خزانة تمنطيط

56–محمد العالم بكراوي: الدرة البهية في الشجرة البكرية، مخطوط، ب ت، الخزانة البكرية، تمنطيط، الجزائر، ص 131.

57–ينظر: محمد باي بالعالم: الرحلة العلية، المرجع السابق.

58–ينظر: محمد باي بالعالم: قبيلة فلان في الماضي والحاضر، دار هومه، الجزائر، 2004م.

59–محمد باي بالعالم : الغصن الداني، المرجع السابق.

60–مولاي أحمد الطاهري الإدريسي: المخطوط السابق، ص 09 وما بعدها.

61–نفسه: ص ص من 36 إلى 84.

62–محمد بن عبد الكريم: جوهرة المعاني، المخطوط السابق، ص ص 31، 36.

63–محمد بن عبد الرحمان البلبالي وآخرون: غنية المقتصد السائل فيما وقع بتوات من القضايا والمسائل(الغنية البلبالية)، مخطوط، بدون ترقيم، خزانة ملوكة، ادرار، الجزائر .

64–محمد بن العالم الزجلاوي: نوازل الزجلاوي، مخطوط، بدون ترقيم، خزانة كوسام، ادرار، الجزائر.